أفلاطون وفلسفته *

فى فترة البؤس التى تلت حروب البلوبونيز ، وفى السنة التى مات فيها بركليس (٤٢٩ . ق . م) ولد أفلاطون فى أسرة نبيلة ، وقد تربى تربية أمثاله من أبناء النبلاء ، ومن الغريب أنه لم ينهج نهج أقرانه الشرفاء فى الحياة ، فلم تجذبه الحياة السياسية بسلطانها وجبروتها ، ولم تخدعه ظواهر الأرستقراطية والألقاب وغيرها مما يتطلع إليها الشبان عمومًا ، وأبناء الطبقة العالية خاصةً ؛ احتقر كل ذلك واطمأن إلى العزلة الفلسفية ؛ ولما بلغ العشرين صحب سقراط ، وتولد بينهما ما يتولد عادة بين الفتى الذكى المجتهد والمعلم العظيم ؛ وقد تأثر أفلاطون بسقراط ليس فقط فى آرائه ومعتقداته ، وإنما فى حياته وأخلاقه ، ولا يَخْفَىٰ أن سقراط كان مثلاً طيبًا للرجل القوى الإرادة ، القادر على كبح أهوائه ، المتبع فى الحياة آراءه وقواعده لا يحيد عنها ولو تجرع كأس السم القاتل .

وبعد موت سقراط قام أفلاطون بعدة رحلات طويلة ، زار فيها ميغاريا ومصر وغيرهما ، وقد أفادته هذه الرحلات فائدة جمة ، ففضلاً عن أنها أكسبته خبرةً بالناس والأخلاق وعادت على نفسه بالمتعة واللذة ،

* مجلة المعرفة ، نوفمبر ١٩٣١م .

فإنها أعدت له فرصة التعرف إلى الفلسفات القديمة والحديثة كالفيثاغورية والميغارية وغيرهما ، مما كان له أكبر الأثر فى حياته الفلسفية كما سترى فيما يلى ؛ وعاد أخيرًا إلى أثينا وهو فى الأربعين ، حيث التف حوله طلبته ، وأخذ يلقى دروسه فى الأكاديمية ، وخيم السكون والتفكير على حياته زمنًا طويلاً ، ثم قام برحلتين أخريين قطعتا عليه حبل التفكير والسكون ، إلا أنه عاد إلى أكاديميته يستأنف حياة التفكير والتعليم ، ولم يكدر صفوه فى أخريات أيامه إلا الانقسام الذى نشأ فى مدرسته ، والذى يعد أرسطو مسئولاً عنه ؛ وبينما كان منهمكًا فى الكتابة ـ أو فى حفلة عُرس على قول آخرين ـ صعدت روحه فى رفق وهدوء كأنما أخذه بالعين إغفاء .

ونستطيع أن نقسم فلسفة أفلاطون إلى ثلاثة أقسام تبعًا لأطوار حياته المختلفة : أولها طور تعلمه ، وثانيها طور رحلاته ، وثالثها طور تدريسه .

فلسفة الدور الأول

تتأثر فلسفته هنا بفلسفة سقراط تأثرًا ظاهرًا ، فهو يحاول أن ينشئ أصولاً عامة مطلقة للأخلاق ، ناهجًا نهج معلمه فى معارضة السوفسطائيين ؛ ويعترضنا فى منطق البحث كتابه « فيدروس » ، وإنه وإنْ صح أن أفلاطون وضع ذلك الكتاب فى ذلك العهد لحق القول بأنه

توصل لمعرفة صفوة آرائه ـ كاعتقاده بسابق وجود الروح مثلاً ـ وهو لا يزال شابًّا ؛ أما إذا أسقطنا « فيدروس » من بحثنا ، فيظهر لنا من تطور عقليته :

(أولاً) المحاورات التى ناقش فيها آراء سقراط مستعيرًا لهجته فى البحث والمنطق ، فالجزء الذى من إنشائه هو أول ما كتب ، وفيه يتكلم عن بعض المسائل الأخلاقية كالصداقة وقوة الاحتمال ، ويَعْتَوِر تلك المقالات من عدم التناسق والضعف ما يدل دلالة واضحة على أنها كُتبت فى أول عهد الفيلسوف بالكتابة .

(ثانيًا) ردوده المختلفة على السوفسطائيين بنقد ظاهر آرائهم فيما يتعلق بتأثيرهم فيمن حولهم أو بمناقضة سقراط لهم ، ثم يناقش رأى سقراط فى الفضيلة القائل بأنها معرفةٌ تُعَلَّم كبقية المعارف .

(ثالثًا) معارضته فكرة الفضيلة عند السوفسطائيين المبنية على الشعور الذاتى الذى يتطلع إلى السرور ، لأن الفضيلة ـ فى رأيه ـ ليس لها غاية خارجة عن ذاتها ؛ فينبغى أن يحل الخير محل السرور كقاعدة أخلاقية .

فلسفة الدور الثانى

درس الفيلسوف فى ذلك العهد فلسفة الإليين والفيثاغوريين ، مما أنضج فلسفته الخاصة ، وأوحى إليه بأعظم الأسئلة الفلسفية ، وأَهَّبَهُ

لتحرير الفلسفة السقراطية من قيود الحياة العملية؛ ولم يقصر بحثه فى الأخلاق ، بل ترك العنان لفكره يحلق فى أجواء المعرفة باحثًا عن جذورها الأولى الموضوعية ، متأثرًا فى ذلك بطريقة سقراط التى تجعل من أجزاء البحث نظامًا عامًّا ، معارضًا فكره بروتاجوراس السوفسطائى الذى يبنى قوانينه الأخلاقية وغيرها على أساس ذاتى ، وكان من نتيجة بحثه أنْ تَوَصَّلَ إلى معرفة نظرية الأفكار ، لأنه فهم أن الأفعالَ نتيجةٌ للمعرفة التى هى نتيجةٌ بدورها للأفكار .

فلسفة الدور الثالث

وفيه تتمة فلسفة الدور الأول الأخلاقية ، مضافًا إليها بحث عميق لمسائل الدور الثانى ؛ وانتهى من ذلك بأن كَوَّنَ نظامًا فلسفيًّا عامًّا كان الأولَ من نوعه فى تاريخ الفكر الإنسانى ، وبحث فيه أبحاثًا اجتماعية تَصَوَّرَ فيها الأمثلة العليا للحكومة والمجتمع .

ومجمل القول أن فلسفته تتضمن علومًا عملية وأخرى نظرية . ولعل تقسيم أرسطو لفلسفته إلى فلسفة طبيعية ومنطقية وأخلاقية أصدق التقسيمات لأنها حصرت آفاق أبحاثه فى هذه الفروع الثلاثة ، ويُلاحَظ أنها فى كتبه ممتزجة لا تَمَايُزَ بينها ، غير أن (الجمهورية) يغلب عليها البحث الأخلاقى ، و(تيموس) تنطبع بطابع البحث الطبيعى .

أفلاطون وبروتاجوراس

لا يفرق بروتاجوراس بين المعرفة والإدراك ، فالأشياء هى فى الواقع كما

تبدو لنا ، والإدراك يتنزه عن الشك والاضطراب ؛ ولما كانت الإدراكات تختلف باختلاف الأفراد ، بل هى تختلف فى الفرد الواحد تبعًا للأحوال المختلفة ، فإنه من غير المعقول أن ينهض قانونًا عامًّا أو قاعدةً عامة ؛ وعليه فالحقائق نسبية ليس غير ، وناقض أفلاطون هذه النظرية . ونحن نلخص أدلته فيما يلى :

(١) إذا كان لا فرق بين الكائن والظاهر ، أو بين المعرفة والإدراك ، فإن أىَّ حيوان له قدرة على الإدراك يصح أن يُتَّخَذ إدراكُه قياسًا للأشياء، كذلك يصح حُكمى وأنا عليل ، وإذًا فليس هنالك ثمة فائدة من التعليم والمناظرة !

(٢) فى تصديق النظرية تناقضٌ منطقىّ ، لأن بروتاجوراس ينبغى أن يعد المُناظر الذى يخطئه صادقًا فى حكمه و إدراكه !

(٣) إن هذه النظرية تقضى على الإدراك نفسه لأنه متوقف على الموضوع « المحسوس » ؛ ولما كان هذا الأخير عديم الثبات ، فتغيره الدائم هذا يجعل الإدراك أمرًا مستحيلاً .

(٤) كذلك بروتاجوراس لم يُشِرْ بكلمة إلى إدراك العقل ، فنحن قد نسمع ونرى ونشم ونلمس ونذوق بالحواس ، ولكنّ اندماج هذه الإحساسات ذات الأعضاء المختلفة فى حيز شعورنا لا يَتَأَتَّى بالحواس ، كذلك أننا نصف المحسوسات بالاتفاق وعدمه ، والاختلاف والتشابه ،

كما أننا نقارن بين الإدراكات المختلفة . ليس ذلك بالحواس لأنه من رابع المستحيلات أن نتلقى إحساسات السمع عن طريق العين أو العكس[1].

وكما مَيَّزَ أفلاطون بين المعرفة والإدراك ، مَيَّزَ بينها وبين الاعتقاد ، وجعله فى مرتبةٍ بين المعرفة وعدمها . والمهم أنه لم يعتبر الاعتقاد متحققًا فى المعرفة .

علاقة العلم بالفكر

الكون عالمان : عالَم منظور ، وهو المتقدِّم المُطَّرِد فى تقدمه ، الذى يتجه من الماضى إلى المستقبل مارًّا بالحاضر . وعالَم دائم ثابت غير متغير، أزلى لا نهائى ، ونحن نتوصل لمعرفة العالم الأول خلال الاعتقاد مستعينين بالحواس ، ومعرفتنا له مُشَوَّشَةٌ مضطربة . أما الثانى فنرقى إلى معرفته معتمدين على التفكير العقلى ، ومعرفته صحيحة صادقة ، فالقوة العقلية هى وحدها القادرة على كشف الحجاب عن نور الحقيقة الأبدية الكامنة خلف ظواهر الأشياء . وهذا هو العلم الصحيح ، وكان يسمِّى الحقائق « بالأفكار » !

النظرية المثالية

بنى أفلاطون هيكل هذه النظرية الفلسفية الهامة مستعينًا بثلاث

(١) يقول بعض علماء النفس بعدم استحالة ذلك . ونذكر أننا فى أحد كتب وليام جيمس قرأنا له تلخيصًا لأقوالهم ، وهم يفسرون ذلك بأنه إنْ أمكن نقل أعصاب العين وشعيراتها إلى الأذن لَكُنَّا نرى بآذاننا .

دعائم ، أولها فكرة سقراط التعميمية ، وثانيها « استحالة » هيراقليط ، وثالثها الكائن المطلق الذى تَصَوَّرَهُ برمستيد .

كل شىء فى الوجود ـ كالخَيِّر والجميل ، والقوة والإنسان ، والنار والماء إلخ إلخ ـ له مثال فى عالم الأفكار . والمثال أو الفكرة يمكن تعريفها بأنها العنصر العام للمختلفات : الإنسانى للفرد ، والوحدة للكثرة ، وهى أصل المعرفة ومبدؤها ، كما أنه ليس لها أية علاقة بالتجاريب أو الحواس ، ولما كان لكل شىءٍ مثال فهو لم يوجد عبثًا أو صُدفة ، والفكرة سابقة لنسختها المادية ؛ ولكى نتصور ذلك نضرب مثلاً بالدائرة ، فهى موجودة بذاتها قبل أنْ تُرْسَمَ فى حيز ، كذلك جميع الأشياء المادية من كائنات حية وصفات وعلاقات لها مثال فى العالم العقلى سابق لمشخصاتها فى العالم المادى ، فالمثل مبدأ المعرفة ، ويتميز بصفتين :

(١) الشمول لكل الموجودات التى من جنس واحد .

(٢) جوهرى موجود بذاته ، وهو أتم وأكمل من مشخصاته ، والمثل مرتبة حسب درجاتها من الكمال ، وعلى قمتها مثال الخير .

العلاقة بين الأفكار وعالم الحس

لم يقرر أفلاطون هذه العلاقة تقريرًا يُطْمَأَنُّ إليه ، لأن الأدلة التى ساقها مخلخلة بالتناقض ، ولم تَعْلُ كثيرًا عن الفروض ، ولم ينفض عنها

الشكوك عندما قال : إن الظواهر هى صورٌ منَ الأمثلة الموجودة فى عالم الأفكار . وعندما ناقش فكرة الاستحالة وبحث عن حقيقتها ، صرح بأن الأفكار ـ الدائمة الجوهرية ـ هى ـ وحدها ـ الحقيقة ، وعَدَّ المادة غير موجودة ، وأن المحسوس ما هو إلا شبيه بالموجود ـ الموجود الحقيقى .

وفى الكثير من الأحايين يتكلم أفلاطون عن العالم المنظور كما لو كان مظهرًا يُدْرَكُ بالشعور الذاتى ؛ وفى جميع الأحوال ، الذى يُفْهَمُ من تقريراته هو أن الموجود الحقيقى واحد ، أما عالم الحس فما هو إلا صورة من ذلك الموجود الحقيقى ؛ ولكن لا نلبث أن نصطدم بتناقضٍ عظيم يقضى على هذه الوحدانية فى أبحاث الفيلسوف التى وجهها إلى الروح والجسد ، وما قرره بينهما من العداوة المستديمة ، ثم أقواله عن المادة ومقاومتها لقوة الأفكار الخالدة ؛ فكل هذا يدلنا على وجود قوتين متضادتين وعنصرين منفصلين ، لا قوةً واحدةً وعنصرًا واحدًا .

فكرة الخير والكائن الإلهى

علمنا أن الأفكار فى عالم العقل مرتبة تبعًا لدرجات الكمال ؛ أو بعبارة أخرى هى متسلسلة ، كلُّ واحدةٍ منها أسمى منَ التى قبلها ، ولكن لابد أن يكون لتلك السلسلة نهاية ، وأن يكون للأفكار فكرةٌ عليا هى أصل الجميع ، وتلك الفكرة هى فكرة الخير . . هى أساس المعرفة ، أصل المثل ، مبدأ الحقيقة ، منبع العقل . . وهى فوق الجميع ، ليس لها أصل فوقها ، فهى مطلقة جوهرية .

وقد يتساءل : ما علاقة هذه الأفكار بالله ؟

وليس عندنا جواب صريح على هذا السؤال ، والظاهر أن أفلاطون لم يبحث ذلك بحثًا خاصًا ، وكثيرًا ما يقتنع القارئ بأنه لا يفرق بين فكرة الخير والله .

الطبيعة وكيفية الوجود

قبل الوجود كانت توجد قوة مبدعة كأصل عام متحرك ، وعلى جانبها العالم المثالى الدائم ، ثم العماء الذى يحوى فيه جراثيم العالم المادى ، ومن هذين العنصرين خَلَقَ الخالقُ « رُوح العالم » ، وهى سر قوته ونظامه وحركته ؛ ثم إن القوة المبدعة بعثت روح العالم لتملأ به الفراغ الذى تركه العالم حينذاك ، مُقَسِّمَةً إياه إلى قسمين يملأهما على التوالى النجوم الثابتة والكواكب . ثم قُسِمَ القسم الأخير إلى سبع دوائر خاصة .

ثم تكونت العناصر الأربعة ، ووُجِدَتِ الدنيا فى الفراغ الذى ملأه الروح ، فكأن روح العالم هى الحد الأوسط بين عالم الأفكار وعالم الأجسام ، هى الواسطة التى استندت عليها الفضيلة فى صنع المادة .

الروح

هى أبدية ، من أهم صفاتها التطلع إلى معرفة الإله الخالد وغيره من المعانى الجوهريـة أثنـاء تأملاتها فى عالم المثال ، غير أن اتصالها بالجسم

لا يقل فى أهميته وخطره عن اتصالها بالملأ الأعلى ، وأثناء اتحادها مع الجسم تخضع لما يخضع له من الحركات والتغيرات ، كما أنها تتأثر بمطالبه الحسية وأطماعه وشروره ؛ من هنا قام النزاع فيها بين ما هو أسمى وما هو أدنى ، كلٌّ يحاول التغلب واجتذاب الآخر إليه فى شدة وعنف ، ولا يقتصر التأثير على الروح من الجسد ، وإنما هو متبادَل بينهما ؛ والروح تحاول انتشال الجسد من ورطته ، لتسمو به فوق الشهوات ؛ وفى الروح عنصر خالد ينتمى إلى العقل ، وعنصر لا صلة له بالعقل يسرى عليه الفناء ، وبين هذين العنصرين تتولد صفة الشجاعة ؛ ولما كان من الممكن أن توجد فى الأطفال وبعض الحيوانات ، فهى ليست من العقل فى شىء ؛ وعلى العموم نستطيع أن نميز ثلاثة أنواع للنفس : نفس عاقلة فى الرأس ، نفس غَضَبِيَّة فى القلب ، ونفس شهوانية فى البطن .

وعقاب الأرواح التى تتحكم فيها رغبات الحواس ، هو أن تحل مرة أو مرات فى أجسام أخرى ـ ربما كانت منحطة ـ حتى تُطَهَّرَ من أدرانها .

الأخلاق

تتلخص فى معرفة الغرض والنهاية ، فهى نظرية المثال فى شكلها العملى ، تتكلم على الخير السامى ، أو الخير المطلق ، وهو فى نظره السمو إلى الحق ، إلى المثال الأعظم ؛ أما غاية الروح فهى التخلص من

حبال الشهوات والمطامع لكى تكون نقية عادلة ، وتسمو إلى مصاف الآلهة ؛ ولا يتأتى ذلك إلا بامتلاك عنان النفس ، وهجر الرذائل ، والسكون للفكر ، والتأمل والاستغراق فى معرفة الحق ، أو ـ باختصار ـ التوجه إلى الفلسفة .

أما عن رأيه فى الفضيلة فقد اعتنق رأى سقراط القائل بأن الفضيلة معرفةٌ تُعَلَّم كبقية المعارف ؛ أما فيما يتعلق بوحدتها فقد عَدَّها وحدةً وكثرةً فى آنٍ واحد . . وحدةً باعتبار أن كل فضيلة متوفرٌ فيها خواص «الفضيلة المطلقة » ، وهى كثرةٌ بالنسبة للصفات العديدة التى تتمثل فيها ؛ أما أهم الفضائل الأساسية فقد استخلصها من تقسيمه السابق للروح ؛ ففضيلة العقل الحكمة ، وفضيلة القلب الشجاعة ، وفضيلة الحس الاعتدال ، ثم أضاف إليها العدل .

جمهورية أفلاطون

هى مدينة بناها أفلاطون من تـخت خياله ليوفر لسكانها السعادة ، وسكانها قليلون بحيث لا يستحيل عليهم التعارف ، وكل شىء فيها رهن الفائدة العامة ، ولهذا فالدولة تتصرف تمام التصرف فى الفرد وعمله وطبقتـه وعلاقتـه الجنسيـة وأولاده ، والأملاك مُشاعة كالأطفال الذين لا يعرفون أبًا ولا أمًّا ، وليس لهم إلا مدينتهم يبذلون فى سبيلها كل غال .

والمدينة ثلاث طبقات : طبقة الأوصياء والمقاتلين والزُّرَّاع ، وهم يعملون للدولة كما تعمل الأعضاء للجسم ، كلٌّ يقوم بوظيفته الخاصة ، ولا يضمن الصحة للجسم إلا تقسيم هذا العمل بين أعضائه ، كما لا يضمن السعادة للدولة إلا قيام كل طبقة من الطبقات الثلاث بالواجب الملقى على عاتقها ؛ ونلاحظ هنا أن الطبقات تتبع فى تقسيمها أنواع الروح السابقة الذكر ، والامتلاك والزواج مُبَاحٌ فى طبقة الزراع ، بينما هو محرّم فى الطبقتين الأخريين ؛ ولعل الباعث على ذلك هو شدة اهتمامه بهاتين الطبقتين اللتيْن تضع إحداهما للأمة دستورها ، وتكفل لها حريتها ، وتبحث لها عن خير الوسائل لإسعادها ، وتدافع الأخرى عنها وتكفيها شر غائلة العدو .

على أن الطبقات لم تكن جامدة ، وكان الطفل الذكى ـ مهما كانت طبقته ـ يُرَبَّى تربيةَ الأوصياء ؛ كما أن ذوى العاهات كانوا يُقتلون ، بصرف النظر عن الطبقات التى ينتمون إليها .

إلى هنا نختتم الكلام عن فلسفة أفلاطون ، ولو أردنا أن نوفيها حقها من التلخيص والتعليق لما كان يكفى لهذا الغرض مجلد كبير .